المسلم الأعلى تحوّل إلى المسلم الأدنى، لم؟

دراسة تحليلية على ضوء الكتاب «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» لأبي الحسن الندوي - رحمه الله

د. إ عبد اللطيف
الأستاذ المساعد، كلية الجامعة، تروواناتافورام، كيرلا

أبـو الحسـن النـدوي هو مفكر إسلامي وداعية هندي ولد بقرية تكية، مديرية رائيبريلي،الهند عام ١٣٣٣هـ\ ١٩١٤م وتوفي في ٣١ ديسمبر ١٩٩٩ الموافق ٢٣ رمضان . وبدأ تأليف كتابه المشهور ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين عام ١٩٤٤ م، وأكمله عام ١٩٤٧م، وقد طُبعت ترجمتُه الأردية في الهند قبل رحلته الأولى للحج عام ١٩٤٧م.

عندما نبحث عن هذا الموضوع لا بد أن نفهم ماهي المؤهلات الأساسية للشيخ أبي الحسن علي الندوي لكتابة مثل هذا العنوان؛ هي أنه كان من أسرة دينية إسلامية مشهورة بالعلماء المثقفين مثل أبيه الملقب «ابن خلكان الهند» عبد الحي بن فخرالدين الحسني صاحب المصنَّفات المشهورة "الاعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام" وأمه من المؤلفات الحافظات للقرآن الكريم، تقرض الشعر، وقد نظمت مجموعة من الأبيات في مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم. وجده الأمير قطب الدين محمد المدني (م ٦٧٧هـ) جاء إلى الهند في أوائل القرن السابع الهجري، حتى ينتهي نسبه إلى عبد الله الأشتر بن محمد ذي النفس الزكية بن عبد الله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن بن علي ابن أبي طالب. فعلى هذا استطاع أن يفهم ماكان في المجتمع الإسلامي ومافي المجتمع الإسلامي وما سيكون في هذه الأحوال في المجتمع الإسلامي، لأنه فكر عندما تعلم، وقدر عندما تفهم، وعزم وتهيأ عندما تذكر، وكتب في عنفوان شبابه مثل هذا الكتاب المشهور في العالم «ماذا خسر العالم بإنحطاطا المسلمين»

لكتابه خمسة أبواب، الباب الأول العصر الجاهلي، وفيه فصول - الفصل الأول الإنسانية الى احتضار والفصل الثاني النظام السياسي والمالي في العصر الجاهلي

الباب الثاني من الجاهلية إلى الإسلام، والفصل الأول منه منهج الأنبياء في التغييروفي الفصل الثاني رحلة المسلم من الجاهلية إلى الإسلام، يقول عن أثر هبوب ريح الإيمان المضيء الذي هب إلى قلوب الجاهلية القاتمة، مبينا مظاهر التحول والتغيير.

فكيف تتحول هذه القلوب الجافة ورجالهم كانت تأخذ بناتهم وهن في سن التميز ليلقوهن في الآبار وأدا؟، عندما تقول البنت لأبيها لا تقترب إلى البئر لكي لا تسقط و تمسح الطين من لحيته، ولكن دون أي عواطف يلقي ابنته في البئر خوفا من العار !، كيف تحولت هذه، والمرأة التي كانت لا ترث، وعند موت زوجها يرثها أخوه أوابنه. والعبودية وتجارة الرقيق وقطاع الطرق والحروب الثأرية التي تستمر لسنين. أما التجديد العاطفي الروحاني بوجوب الشريعة الإسلامية الصلاة التي هي تواصل عدة مرات مع الخالق الهادي الرحمن الرحيم الحنان المنان، فتقذف هذه الصفات الالهية في هؤلاء المصلين ليكون عبادا ربانيين رحماء فيما بينهم، وشرعت الصدقة والمفروض منها الزكاة هذه الضريبة السنوية التي تحارب حب النفس للمادة، وكأن الإنسان يقول لنفسه كفى، فيدفها، فتزكي هذه النفس لتطهر، ومن حبهم للتطهر يحبون الصدقة طوال العام، لأن هذه الشريعة جاءت لتحمي الضعيف وتصونه، فكافل اليتيم مع النبي عليه الصلاة والسلام في الجنة، بل المتصدقين في السر يستظلون في يوم لا ظل إلا ظله سبحانه. ولأنهم عرب أهل لغة فكانت المعجزة الكبرى لهم وللبشرية هي كلام يتحداهم لغويا وإعجازيا من كلام الله سبحانه، فمجرد جمل يسمعونها يدخلون في الصرح العظيم لهذا الدين، والحج هو الاستسلام العملي التام للبشرية لتحقيق أسمى معنى في الوجود هي العبودية أمام الخالق المصور. مع الآلاف والملأين يدورون حول بيت واحد لرب واحد ليقولوا لبيك اللهم لبيك. والصيام هو التنازل التام لحظوظ النفس، فكيف لا تسمو الروح؟ كيف لا يحب المسلم أخاه المسلم؟ كيف ينظر لأصل عرقي أو طائفي؟ كيف لا يعيش الفرد والمجتمع بسلام؟ و لكن هناك الكفة الأخرى الا وهو قوانين الدولة وتنظيم الأفراد وهذا يحتاج مجلدات لكن نتكلم باختصار لقد حدد الشارع أهم عقوبات ترتكبها تكررها البشرية (القتل – الزنا – شرب الخمر – السرقة) ولا يعلم كيفية عمل المخلوق إلا الخالق فكانت العقوبات بالترتيب الإعدام، الجلد – رجم، الجلد، قطع اليد، وباقي توجيهات عامة كحرمة الربا والرشوة الخ.. ولا ننسى هنا حظوظ المرأة فأصبح لها الحق في الطلاق واختيار الزوج والميراث والتملك

والمشاركة في العمل التنموي للمجتمع فكل هذا أحرى بأن يبني مجتمع مسلم مسالم من مجتمع جاهلي محارب.

ثم يبين في الفصل الثالث المجتمع الإسلامي عن خصائص المجتمع الإسلامي الجديد من مسؤولية وطاعة وحب وتفاني وتضحية وإيثار، مبينا أثر الرسول صلى الله و عليه و سلم في هذا المجتمع، وذاكرا أحاديثه (صلعم): ((كلكم بنو آدم، وآدم خلق من ترا، ولينتهين قوم يفخرون بآبائهم، أو ليكونن أهون على الله تعالى من الجعلان))، (لا فرق بين عربي و أعجمي و أسود و أبيض و أحمر و أصفر إلا بالتقوى)، يسلم الأنصاري على المهاجر فيقول له نصف مالي لك ونصف ما املك لك و يطلق أحد زوجاته ليعطيه إياها !، و يأخذ النبي صلى الله و عليه وسلم أمثالهم ويعدلها ليعدل التوجه العام لهم فيقول: ((أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً)) فيقول هذا المتعصب سابقا: ((يا رسول إذا نصرته مظلوماً فكيف أنصره ظالماً ؟ قال النبي صلى الله عليه وسلم: تمنعه من الظلم فذاك نصرك إياه)). فأصبح هذا المجمع المتوحد كل مسئول عن الاخر فالزوج على زوجته و الزوجة على الأبناء والراعي على الغنم والتاجر لتجارته الخ..، وهنا انبعثت عاطفة الحب المفقودة منذ قرون في هذا المجتمع، فكانت كالماء البارد في معدة العطشان، ويسترسل في ذكر الأمثلة ونذكر أحدها (خرجت امرأة من الأنصار قتل أبوها وأخوها وزوجها يوم أحد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قالوا : خيراً هو بحمد الله كما تحبين! قالت : أرونيه حتى أنظر إليه. فلما رأته قالت: كل مصيبة بعدك جلل ؟؟؟!!!) وهكذا في فصل الرابع كيف حول الرسول خامات الجاهلية الى عجائب الانسانية يبين ما وقع للعرب الجاهلي من التحولات إلى المسلم الأعلى.

أما الباب الثالث العصر الإسلامي فيه أهم نظرياته، ويتحدث في الفصل الأول - عهد القيادة الإسلامية الراشدة - عن خصائص الأئمة المسلمين وتأثيرهم في المجتمع، فعندما تهب روح الإيمان في قلوبهم ترى له تأثيرا واضحا كتأثير المطر على النبات أو كتحريك الرياح للسفن، فهذه القيادة الروحية المستقيمة كانت كجناح الأمان للشعوب و منبت النهضة للأمم.

ويبين أن في بداية القرن السادس ميلادي، تولدت طفرة غريبة التي غيرت مسار البشرية كلها، فظهرت أول حضارة دينية مدنية التي لا تسعى الى هدم الشعوب و تدميرها بل بنائها و تعميرها، فعندما تولى علماء الدين امور السياسة قبل الإسلام

طغوا و تجبروا و استعمروا و استغلوا، لكن الآن يكون عالم الدين نفسه خليفة الأمة،ينام على الحصير، تحاسبه المرأة، يستشير القوم، يراقب شعبه بنفسه، يفتح البلاد، فلا يقتل الصغير و الكبير، و لا يهدم الكنائس و الصوامع بل لا يغلقها، بل إن أحد الخلفاء أراد إحدى الكنائس ليجعلها مسجدا فاشتراها و لم يسلبها كما فعلوا هم سابقا !، كانت الدولة الإسلامية تمتد من شرق اسيا الى غرب افريقيا، جنسية افرادها ليس اسيوي أو افريقي أو مصري أو رومي بل جنسيته هي الإسلام، و على الرغم من هذه المنطقة الجغرافية الكبيرة فلم يشتك منها مسلما بل إنهم يبحثون عن مستحقي الزكاة فلا يجدون، كان نظام روحاني رباني يعتمد على حب الله، لا سلطة القانون، هذا ما جعلها خلافة راشدة.

الانحطاط الذي حدث في الحياة الإسلامية

أما في الفصل الثاني - الانحطاط الذي حدث في الحياة الإسلامية - هو الحد الفاصل بين العصرين، فيرى السبب الأول للانحطاط هو تحول الخلافة من الشورى إلى الوراثة، هنا بدأ الانتكاس، عند انتقال القيادة إلى غير الأكفاء، نسخة كسرى وقيصر هنا أصبح الانتكاس، وعندما أبعدوا من بصيرة الفقهاء في الدين في القرارات السياسية هنا بدا الانتكاس.

ويقول عن قلة الاهتمام بالعلوم الطبيعية والانغلاق عن العالم كان له دور فعال في التخلف الإسلامي الذي امتد تأثيره ليومنا هذا، ويسأل: فأي فقيه عاقل يحرم استخدام الإبرة لأنه ضد التوكل على الله؟

وظهور بعض الضلالات والبدع الدخيلة على الحياة الإسلامية كان تأثيره كسم الحية في جسم الإنسان، فبعد الاحتكاك بشعوب آسيا وديانتها العجيبة ظهرت الصوفية المنحرفة، مع أناس كالبوذا والهندوس ولكن على الطريقة الإسلامية، فأصبحنا نرى لأول مرة من يقول أن الله يتخذ معنا جسما، ويقولون إنهم يرون الخضر من حين لآخر، ويلبسون سلاسل الحديد، ويتعلقون في الأشجار لإظهار الزهد، والتعصب لشيخ المربي لدرجة تكفير من لم يتبع طريقته، والقعود عن الجهاد باسم أن جهاد النفس أولى ؟!!!!، هذه بالنسبة للانحراف السلوكي.

أما بالنسبة للانحراف العقلي فقد دخل على المسلمين أخطر أنواع الفلسفة السفسطائية، وهي التي لا تعترف بالحقيقة، فيقولون أيهما خلق أولا البيضة أم

الدجاجة؟؟؟!!!!، فأدخلت هذه الأفكار الغريبة إلى أن وصلت للعقيدة فظهرت الفرق الضالة كالمعتزلة الجهمية الخ.. أنكرت صفات الله، الخ..، فهذه العوامل أدت لإبطاء حركة النمو للمجتمع الإسلامي، على الرغم من وجود العلماء الفضلاء المجددون لهذه الأمة.

ثم يقول عما حدث وتطور وتحسن في المسلمين في القرن السادس الهجري بقدوم العلماء مثل أبي حامد الغزالي الذي عدل وصحح الفكر الصوفي وأوضح دور علم الكلام ما له وماعليه والقائدين مثل صلاح الدين الذي فتح القدس ووحد المسلمين. ولكن بعد هذا السلطان الفاتح عادت الحياة السياسية إلى فقرها. وسبحان الله !!! هذه سنة الله، الخير يخص والشر يعم، لكن الخير كالشمعة التي تضيئ الغرفة المظلمة، فمهما كثر الشر فتركيز، و تأثير الخير هو الأقوى.

كيف تقدم العرب في العلوم الحديثة في تلك العصر؟

من هنا نبدأ التفكير، مما قال أبو الحسن الندوي، كنا نعرف المسلمون تقدموا في العلوم الحديثة في تلك العصر، أي كنا نعرف العلوم التي تعرف الآن علوما عصريا مثل الطب والرياضيات والجغرافية والهندسة ومثلها تولدت في العصر الإسلامي، وترجع أصول كل من هذه العلوم إلى العصر الإسلامي.

فعندما نبحث عن تقدم علم الرياضيات في عصر الإسلام واختراعهم «صفر» وتصوير الخط للأرقام فليس لها أي سبب غير إسلامي، عندما أوجب الإسلام الزكاة فاضطروا إلى النصاب والحقوق والسهم في الخرص والأخذ والتوزيع، فتفكروا واستفسروا فيها وحلوا مشكلاتهم، ولكن الباحثين لم يقف عند الحد، بل تقدموا إلى الأمام، فتولد منهم العلماء الكرام مثل الخوارزمي واضع نظام الترقيم، وأن الخوارزمي هو واضع علم الجبر أيضاً. أما العالم الإيطالي فيبوناتشي فهو الذي نقل العلم الحسابي العربي إلى أوروبا بعد أكثر من ثلاثمائة عام على اكتشافه عربياً، والمؤسف أنه معروف في الغرب على أنه مكتشفه لا ناقله. هل تعلمون أن عالماً مسلماً هو مكتشف اللوغاريتمات؟ وأن أصل علم المختصرات عربي؟ و ابن الهيثم عالم الرياضيات والفلك والفيزياء هو مخترع الكاميرا التي تعتبر عماد الحياة الإعلامية الحديثة وصاحب كتاب المناظر. وقد أخذت اسمها من كلمة «قمرة» العربية وتعني الغرفة المظلمة أو الخاصة.

أما الجغرافية فهي نتيجة وجوب الحج والعمرة، والجهاد في سبيل الله، ولما أوجب

الله الحج اضطروا إلى اختراع الطريق الموصل إلى المكة من البلاد الخارج التي وصل نور الإسلام فيها. أما انتشار الإسلام والجهاد اللازم فيه أوجباهم على فهم الأماكن ظاهرا وباطنا، فخطوا الخطوط لها، فصارت الخريطات التي ظلت هدى للعالم؛ ولم يزل البحث والاختراعات فيها حتى تولدت منهم علماء الجغرافية مثل ابن حزم الذي اكتشف أن الأرض كوكب يدور قبل العالم الغربي غاليلي بخمسمائة عام وأن الفلكيين العرب كانوا يحسبون حركة الأفلاك بدقة متناهية؟ والعالم الإسلامي الإدريسي الذي قدم للملك روجر في صقلية الإيطالية كرة أرضية مرسوماً عليها أقاليم وبلدان العالم في القرن الثاني عشر، أبو الريحان البيروني الذي اخترع خريطة للنجوم في القرن الحادي عشر، هو الذي أول من قال «الأرض تدور حول محورها» وصاحب ١٢٠ كتابا مفيدا منها كتاب «تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة» الذي ألفه مستوطنا في الهند بالتفقه مباشرا عن ثقافة الهند.[1]

أما مجال الطب والصيدلة فما هي إلا نتيجة كثرة الجرحى والمرضى من الغزاة في سبيل الله، وأن العلماء المسلمين هم أول من اخترع «البنج» أي المخدرات الطبية التي تعطى للمرضى قبل العمليات وهم الذين مزجوا الأفيون بالكحول للغرض نفسه؟ أول ما كانوا يستعملون لهذه عصير أوراق الإخشيش (الخشيش) تدلى في فم الجرحى للإغماء قبل عمل الجراحة، هي التي تعرف الآن بالتخدير(Anesthesia).

وتولد منهم في ذلك الوقت أعظم الأطباء مثل أبو بكر الرازي المتوفى عام ٣٢١ هـ الذى اهتم بالطب التجريبي وحنين بن إسحاق العبادي الذي عاش في عهد الخليفة المأمون قد ألف العديد من الكتب في مجال الطب، وتطرق لداء الرمد وطب الأسنان، وغيرهم مئات من الأطباء الذين عرفوا الأمراض وشخصوها ووصفوا لها العلاج، ومن ذلك داء الجدري والحصبة والصرع والتشنج وأمراض العيون والأنف والحنجرة واستطاعوا فحص النبض والتنفس والقلب، وعلى يد الطبيب العربي علي بن عباس الأهوازي عرف العالم حقائق حركة الرحم عند المرأة وعن حركة القلب والشرايين (Arteries) وحقائق عن داء الدرن (TB) وتشخيص داء السرطان والعمليات الجراحية وإخراج الحصاة واستئصال اللوزتين (Tonsillitis). وعن طريق ابن سينا عرف العصر العباسي داء السكتة الدماغية واحتقان الدماغ وعلاج الأمراض العصبية والاضطرابات النفسية والتهاب السحايا

1 http://www.lakii.com/vb/a-113/a-740685/

و شلل الوجه وطرق العدوى لداء السل الرئوى والامراض التناسلية والتعرف على اسباب العقم عند الرجال والنساء[2].

أما مجال ميكانيكية فأن الفلكي والشاعر والموسيقي والمهندس عباس بن فرناس كان قد سبق الأخوين رايت (Wright brothers) بألف عام في صناعة آلة للطيران؟ وقد طار لأول مرة من أعلى مئذنة في مدينة قرطبة مستخدما عباءة محشوة بمواد خشبية. وقد كانت عباءة بن فرناس أول مظلة في التاريخ. ثم اخترع آلة أخرى من الحرير وريش النسور وطار فيها من أعلى جبل وبقي في الجو لمدة عشر دقائق ثم سقط. واكتشف فيما بعد أن سبب سقوطه يعود إلى عدم صنع ذيل لطائرته. وفي تلك العصر كان بلاد أوربا يطلبون العشب والبامبو لسقف بيوتهم.

وأهم الاختراعات الميكانيكية في تاريخ الإنسانية هو اختراع المهندس الجزائري في تصميم. فهو الذي صمم أول صمامات عرفها الإنسان وهو الذي اخترع الساعات الميكانيكية وهو أبو علم الآليات والتسيير الذاتي الذي تقوم عليه الصناعات الحديثة، وللتذكير أيضا فهو أول من اخترع القفل الرقمي الذي نراه الآن مستخدما في الحقائب والخزائن.

المسلمون هم أول من صنع المواد العازلة، وهم الذين ابتكروا الألبسة المحشوة بمواد عازلة كان وما زال يرتديها العسكريون. وهم الذين أول من صمموا الأقواس الهندسية التي أخذها عنهم الغرب فيما بعد في علم هندسة البناء، ولو لا العلوم الهندسية الإسلامية لما شاهدنا الكثير من القلاع والقصور المنيفة والأبراج الهائلة في الأصقاع الغربية.

إن جابر بن حيان هو مخترع الكيمياء الحديثة وإليه يعود الفضل في صناعة كل أجهزة التقطير والفلترة والتبخير والتطهير والأكسدة المستخدمة هذه الأيام. والمسلمون أنفسهم أول من طوروا الصابون الذي نستخدمه اليوم وأضافوا له الزيوت النباتية وهيدروكسيد والصوديوم والعطورات كعطر الزعتر بينما كانت تفوح من أجساد الصليبيين الذين غزوا الأرض العربية روائح كريهة للغاية حسبما يقول مسلمو ذلك الزمان. وقد جلب الشامبو إلى انجلترا لأول مرة شخص مسلم، وقد عُين فيما بعد في بلاط الملكين جورج ووليام الرابع لشؤون النظافة والشامبو.

إن كل الأدوات المستخدمة في الجراحة والتشريح اليوم هي نفسها التي اخترعها

2 http://elbeak.yoo7.com/t126-topic

العالم الزهراوي في القرن العاشر. هل تعلمون أن المائتي أداة التي يستعملها الأطباء اليوم هي من تصميم الزهراوي؟ هل تعلمون أنه أول من اكتشف الخيطان المستخدمة في العمليات الجراحية والتي تذوب في الجسم بعد العملية. وأن ابن النفيس هو الذي اكتشف الدورة الدموية في القرن الثالث عشر قبل هارفي بثلاثمائة سنة.

ونود أن نضيف إلى ذلك، الاختراعات العربية من كل تطبيقات الحساب والرياضيات والفيزياء الذرية وميكانيكا الكم، وعلم الفلك الضوئي والنيوتروني، وكل أنظمة الفيزياء الكونية والتطبيقات العلمية الفضائية، تقوم وتعتمد على الرقم (صفر) الذي اخترعه العرب، والذي لولاه لما كانت كل الحضارة الحالية ممكنة، ولكن نقول في الجملة ان العرب المسلم اخترعوا من فرشة الأسنان حتى آلة الطيران ومن اكتشاف القهوة إلى صناعة الدواء ومن جراحة الرمد إلى جراحات التجميل ومن المدرسة إلى تأسيس أول جامعة، هناك نحو ألف اختراع لا يمكن للبشرية أن تعيش بدونه حاليا، كانت نتاج لأبحاث المسلمين في الفترة ما بين القرن السابع إلى القرن السابع عشر.

مجال العلم الديني

عندما اتسعت البلاد الإسلامية واختلطت بالثقافات المختلفة الأجنبية مثل اليونان والرومان والفرس تعارضت ثقافاتهم وعلومهم بالثقافات الإسلامية وعلومها؛ فاحتاجوا إلى التحليل والتنقيح والتدقيق بالجمع والتوقف والنسخ بين هذه العلوم. فاعتمدوا إلى الترجمة والتعريب، فأعلنوا بالإنام « فمن جاء بكتاب قديمة فيعطى على وزنه الذهب» فأتى العلماء بكتاب عنده من أنحاء العالم إلى بغداد حتى من الهند بالكتب السنسكريتية، هكذا ترجمت الفيدى والأساطير الهندية إلى العربية. وأسس بيت الحكمة، فتولد منه العلوم الجديدة الملائمة بعقائد الإسلام، مثل علم الكلام والفلسفة الإسلامية المتميزة من فلاسفة اليونان الضالة، والطب والأطباء والهندسة والمهندسون الذين خططوا خطوط مدينة دمشق وبغداد واندلس متميزا من الهندسة يونان والفرس والروم.....

فكيف تحول المسلم الأعلى إلى الأدنى؟

فيقول أبو الحسن في الفصل الثالث - القيادة العثمانية - عما ظهرت في هذه القيادة من مظاهر التجديد التي عدلت الحياة الإسلامية في البداية، وأكبر حدث يؤكد هذه

الحقيقة هو فتح القسطنطينية من قبل محمد الفاتح وقد ذكر حديث عن النبي عليه الصلاة والسلام ينبئ عن فتحها فقال «نعم الأمير أميرها ونعم الجيش جيشها».

ويذكر بعض الخصائص الإيجابية للمجتمع التركي، و لكنه انتقد انحطاطهم في الأخلاق وجمودهم في العلم والصناعة، فكانت سيطرة الجمود العلمي واضحة على المسلمين، فعند وصول الراديو أصبح البعض يظن أنه به جان وشياطين وشلل الفكر بشكل عام، فالإسلام دين لا يحدد العلم، فيرى إن الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أولى الناس بها. وفي أواخر العهد ظهرت أوروبا المادية، وتفوقت في العلوم والتكنلوجيا، مما أكسب العثمانيين لقب الرجل المريض نتيجة تدهورهم في القيادة والسياسة والعلم والتخطيط ولتدخل الجواسيس داخل الدولة فهو أتاتورك الذي يسب الدين والإسلام ويكره كل ما له علاقة في الدين، والذي يعجبنا عن غموض هذا الرجل أن أمه كانت يهودية فعندما مسك زمام الأمور الوزارية في رئاسته فصل الدين عن الدولة رسميا واحتكم بالشيوعية، وعزل الخلفاء الأمناء إلى أن أسقطت الخلافة بتاتا بعد الحرب العالمية الأولى، لأن أتاتورك بالنهاية جاسوس أعداء الإسلام من الداخل.

ثم يتناول أبو الحسن الندوي في الباب الرابع - العصر الأوروبي - الحضارة الغربية بشكل عام، نشأتها وخصائصها وإلى أين ستنتهي. يبين في الفصل الأول - أوروبا المادية - حضارتهم التي كانت مزيج ما بين الحضارة الإغريقية صاحبة الأفكار الفلسفية الضالة، والأوثان التي كانت من كل نوع، فوثن للحب وآخر للجمال وآخر للخير والثاني للشر وغرقان تفكيرهم في الذات الالهية إلى أن أنتجوا وحدة الوجود ونكران الإله وتجسيمه، والحضارة الثانية هي الحضارة الرومية التي كانت ذات طابع عسكري دكتاتوري، فامتزج الروم مع الاغريق فكانت النتيجة امة جبار طاغية ذات افكار عقائدية و اخلاقية فاسدة.

وبعد ذلك، تكلم عن الرهبان وتأثيرهم الضعيف على الشعب والذين تعاونوا مع الحضارة الإغريقية الرومانية نظرا لعدم وجود دين لهم، فكانت النتيجة امتزاج رجال الدين المنافقين الدجالين مع الملوك الجبابرة الظالمين، فكانوا يتاجرون بالدين على أنهم أصبحوا يبيعون أراضي من الجنة !، وحاربوا كل ما هو جديد من الأفكار، وأحرقوا و أعدموا علماء كثيرون لثورتهم على أفكارهم الدينية، فيرى الكاتب أن دينهم كان المادية لا النصرانية.

هذا ما نرى في أمتنا في الحاضر، تسيطر المادية علينا، لا الدينية الإسلامية، كما بينا من قبل، كل الاختراعات تولدت في الأمة المسلمة حسب الحاجات الموضوعية، أو

تولدت العلوم موضوعيا لا علميا، ومع الاعتقاد أنها عمل صالح يثاب من الله سبحانه وتعالى، أما الآن فتتولد العلوم للعلوم وليس موضوعيا، ولا يفيد من الاختراعات الجديدة بإنفاق بليار من الدولار في العصر الحديث إلا بالعشرين في المائة (٢٠٪).

ومن هنا نبحث عن التطور العلمي في بلاد العرب والمسلمين وسهمهم في البحث والاختراع في العصر الحديث؛ إن كان سبب الانحطاط من العصر الذهبي العباسي وعصر التمدن الأندلسي والعثماني هي الاحتلال العسكري من منغوليين والصليبيين والفرنس والبريطانية التي محت جميع الآثار الإسلامية، ففي العصر الحديث هي الاحتلال العقلي والفكري والثقافي، وفوق ذلك كله غفلة المسلمين من هذه الحقائق وشرود ذهنهم من أصول الشريعة.

وفقا لدراسة في عام ٢٠١٠ تم إصدارها في يناير كانون الثاني عام ٢٠١١، وصل عدد سكان المسلمين في العالم حوالي ١,٦ مليار نسمة،[3] التي تشكل أكثر من ٢٣٪ من سكان العالم. يبلغ عدد دول العالم الإسلامي ثمان وخمسين دولة مسلمة، وتتخذ أغلبها من اللغة العربية لغة رسمية لها وهي اللغة التي جاء بها القرآن الكريم، وتصل مساحة العالم الإسلامي إلى ٤١,٧٠٧,٥٤٠ كيلومتراً مربّعاً،[4]

حوالي ٦٢٪ من المسلمين في العالم يعيشون في آسيا، إندونيسيا هي أكبر دولة تضم سكان مسلمين في العالم. و١٢,٧٪ من المسلمين في العالم يعيشون في باكستان، والهند، وبنغلاديش اللاتي كن دولة واحدة معروفة بالسند. ونحو ٢٠٪ من المسلمين فقط يعيشون في الدول العربية، الدول الغير عربية في الشرق الأوسطمثل تركياوإيران هي من أكبر البلدان ذات الأغلبية المسلمة، وفي إفريقيا مصر و نيجيريا لديها أكبر عدد من المسلمين[5].

ولكن بالنسبة عدد الباحثين في المسلمين هي أقل جدا بالنسبة لعددهم، لقد كانت ماليزيا أكثر تخلفاً منا حتى عام ١٩٨٠ ولكنها أصبحت بفضل سياستها العلمية والتقنية صارت دولة ثالثة في العالم في إنتاج رقائق أشباه الموصلات. وأكدت في خطتها المستقبلية لعام ٢٠٢٠ الأهمية الخاصة للبحث العلمي والتقنية في الجهود الوطنية للتنمية الصناعية والمنافسة على المستوى العالمي، كما أولت قطاعات

3 http://mawdoo3.com/كم_عدد_المسلمين_في_العالم
4 http://mawdoo3.com/عدد_الدول_الإسلامية
5 http://www.pewforum.org/2012/12/18/global-religious-landscape-muslim/

الاتصالات والمعلومات أهمية قصوى حيث خصصت لها ما يقارب بليوني دولار سنوياً. لكن المؤلم أكثر أن نقرأ أن عدونا الأكبر إسرائيل احتلت المرتبة الأولى عالمياً فيما يخص نصيب الفرد من الإنفاق على البحث العلمي ١٢٧٢ دولارا. وجاءت في المرتبة الثانية الولايات المتحدة الأميركية التي أنفقت ١٢٠٥ دولارات، وثالثاً جاءت اليابان ١١٥٣ دولاراً. تنفق الصين ١٩٣ مليار دولار وتنفق الهند ٣٩ مليار دولار وتنفق باكستان ٧,٢ مليار دولار، وتنفق مصر ٩١٠ ملايين دولار والسعودية ٢٧١ مليون دولار والسودان ١٨ مليون دولار.وتخصص إسرائيل سنوياً ٥,٩ مليار دولار للبحث العلمي مقارنة بـ ٧,١ مليار للدول العربية مجتمعة. وتحتل «إسرائيل» المرتبة الأولى في علوم الكومبيوتر، والثالثة في الكيمياء، والمركز الثالث في العالم في صناعة التكنولوجيا المتقدمة والمركز الخامس عشر بين الدول الأولى في العالم المنتجة للأبحاث والاختراعات. أمّا بالنسبة إلى عدد سكانها قياساً إلى مساحتها فهي الأولى في العالم على صعيد إنتاج البحوث العلمية، وتشكل بضائع التكنولوجيا العالية ٤٠ ٪ من إجمالي صادراتها.

في الغرب ٤٥٠٠ باحث لكل مليون مواطن، وفي إسرائيل ٥٠٠٠، والعرب ٢١٨ باحثاً لكل مليون مواطن، وكمثال أيضاً سجلت إسرائيل ١٦٨٠٥ براءات اختراع (patents) منها ١١٦٦ عام ٢٠٠٨ وسجلت الدول العربية مجتمعة ٨٣٦ براءة اختراع.

وجديرا بالذكر أن العرب ينفقون ١٠ مليارات دولار على المنشطات الجنسية (Sexual stimulants)، كما قال أستاذ المذاهب المعاصرة بجامعة الملك سعود أن العرب ينفقون سنوياً ٥ مليارات دولار على الشعوذة أو السحر، وأن لدينا ١١٢ قناة تلفزيونية جنسية موجهة للشباب، دون أن نغفل مئات قنوات التسطيح العقلي[6].

ومع هذا كله أن أكثر من الطلاب الذين يذهبون إلى بلاد أوربا لن يرجعوا منهم إلا ٤٠٪ والباقي من اقتصاد عقلي عربي ينتج في البلاد أوربا.

وبالرغم من ذلك، الإرهابية المنسوبة معتمدا على المسلم هي المانع الأساسي من المجال البحث والاختراعات. أزمات الأمن والسلامة والعقلية والنفسية والإقتصادية التي نتجت منها، صارت سببا هاما في تخلف الأمة المسلمة وجمودها. كما قلنا من قبل: حوالي ٦٢٪ من المسلمين في العالم يعيشون في آسيا، إندونيسيا هي أكثر سكان المسلمين في العالم (٦٨٣ مليون مسلم)،ثم ١٢,٧٪ من المسلمين

6 http://nizarabdeen.com/?tag=عدد-الباحثين-لكل-مليون-مواطن

في العالم يعيشون في باكستان، والهند، وبنغلاديش الذي كان يعرف من قبل السند. نحو ٢٠٪ من المسلمين يعيشون في الدول العربية، في الشرق الأوسط، الدول الغير عربية مثل تركيا وإيران هي من أكبر البلدان ذات الأغلبية المسلمة، في إفريقيا، مصر و نيجيريا لديها أكبر عدد من المسلمين. فعندما نعرف عما يقع في هذه البلاد ذات الأغلبية المسلمة مثل العراق والإيران والسوريا ولليبيا وأفغانستان وباكستان... من الإرهابيات المتواترات والقتلى والضحايا الوفير وكثرة الأرملات واليتامى اللاتي لم يروا أمامهم إلا الفراغ، ولم يروهم المجتمع العالمي إلا إرهابيين.

ثم يقول أبو الحسن الندوي في الفصل الثاني - الروح الوطنية في أوروبا - عن درجتهم العالية من التعصب والقومية، أنهم يرون باقي الشعوب خدم لهم، فكانت كل دولة فيها ترى أنها هي الأفضل والباقي الأدنى. وهذه العداوة انتقلت إلى بعض الأقطار العربية، ويوضح الكاتب نظرة الإسلام إلى العنصرية.

وجديرا بالذكر هنا الفرق الهام بين أوربا والبلاد الإسلامية جغرافي، عندما تنشر هذه الروح العصبية لطبيعة المكان الجغرافي لأوروبا يزيد تمسك كل إقليم بوطنيته وتعصبه لأبناء جلده، فأنها ليست أراضي مسطحة متصلة، ولكن كل دولة منها تنفصل عن الأخرى بحدود طبيعية سواء كانت جبالا أوأنهارا. ولكن البلاد العربية مجاورة متصلة بعضها ببعض، وهذا ما نرى في بلادنا المسلمة العربية التسرع في الهلاك بمحاربة القنبلة بين فرق المسلمة على العصبية والشيعية والجمعية.

والفصل الثالث - أوروبا إلى الانتحاريين - يشرح بعض الغايات الفاسدة التي كانت أهم نتائجها القنبلة الذرية التي فجرت آلاف البشر، وينتقد الكاتب الحياة التكنلوجية المعاصرة حيث يقول أحد الفلاسفة أنكم تستطيعون الطيران كالطيور والغوص كالحيتان ولكنكم لم تستطيعوا المشي على الأقدام. ويذكر الكاتب عن الفرق الظاهرة في البحث والاختراع مبينا الغاية منها بالنسبة لهم وبالنسبة للمسلم.

وأخيرا يصل الكلام إلى أن أوروبا في طريقها التدريجي إلى السقوط والانتحار، فكما نعلم جميعا في جميع أنواع الدراسة هناك مواد لا يسقط الطالب بها، ولكن هناك مواد أساسية إذا سقط بها يكون راسبا مستحقا لإعادة العام الدراسي، فكذلك البشرية مهما نهضت وأصبح لها من علوم، فهناك شيء إذا جهلته لا ينفها مجلداتها العلمية واختراعاتها التكنلوجية ومبانيه السحابية، إلا وهو معرفة المغزى الأساسي من الحياة والهدف منها، هو معرفة خالق الوجود، لماذا خلق؟ وماذا يريد من مخلوقه؟ وما

الذي نهى عنه ؟، أسئلة وجودية، إذا جهلت سيظل الإنسان في التوهان والظلمات.

ويبين السبب لهذه في الفصل الآتي الرابع - أثر الاستعمار والسيطرة الأوربية على الإنسانية.

فبعد سقوط العثمانية هجمت السباع على بقية الفريسة، فأخذت تبث تعاليمها وأفكارها ومعتقداتها في هذه الأقاليم الإسلامية، مهاجمة أصول الهوية الإسلامية من لغة وقيم ومبادئ، ثم ذهبت ووضعت هذه الحدود الوهمية فأصبح كل إقليم دولة، حيث فقدت الحاسة السادسة لها – الضمير يعود لأغلب البشرية - التي سماها الكاتب الحاسة الدينية، فأصبح الناس لا تهمهم المسائل العقائدية، لا يهمهم ما الجنة وما النار، لماذا نعبد صنما أو صليبا، فالمسائل الدينية لا توجد في قائمة الأوروبي المعاصر، فتدهوروا في السلوك والأخلاق، فكيف يدخل الكنيسة إذا دخل ولا يشمئز لرؤيته صنم معلق لإلههم وهو يعذب، كيف يقتنع الهندوسي أن لكل شيئ إلها خاصا، والمسيحي أن الله عبارة عن روح وابن وأب كيف وكيف؟، بالبساطة لهم أصل لا يعترفون بعقيدة الغيب فلا يهمهم ماذا يعتقدون، ولأن الديانة الجديدة هي المادية، والمادة لا تعترف بالغيب والروح والآخرة فتهمشها، فأصبح العالم يتطور وينهض في التكنلوجيا والمباني والاختراعات لكنه هبط بالجانب الروحي وخسران الديني الذي يحيي اطمئنان القلوب وسلامة الصدور، فهنا يكمن السلام العالمي الحقيقي، لكن قليل عرفوه، ومن يعرفه فيصل إلى الإسلام.

فالباب الخامس - قيادة الإسلام للعالم - الفصل الأول منه نهضة العالم الإسلامي وفيه يتكلم الكاتب عن التدهور الذي تعيشه مجتمعات اليوم ودور الإسلام لحل مشاكل العالم، فهنا تبرز رسائل الإسلام الخالدة التي حلت أهم مشاكل البشرية، فقسم دورها بثلاث مهمات:

١) الإستعداد الروحي، بإعادة التنظيم الروحاني للمجتمع، هناك صلاة وصيام وزكاة وحج وعبادات أخرى، ومعارف عامة، وضعت ليطهر الإنسان نفسه مثل الذكر الدائم لله والزهد والتوكل على الله والحب والإخلاص وتطهير كل شوائب النفس من غل وحسد وعجب ورياء ونفاق.

٢) والاستعداد التقني، فنحن لسنا رهبانا نفصل الحياة عن الدين (ما لله لله وما لقيصر لقيصر)، بل كلاهما منظومة واحدة، لولا تبرعان عثمان وأبي بكر وعبد الرحمن بن عوف فهل كان المسلمون سينتصرون؟ لولا أسلحة وتجهيزه لجيشه

هل كان صلاح الدين سينتصر، فنحتاج التطوير في المجال التقني والعسكري و التعليمي، والعلم لا دين له فلا بأس من الاستعانة بمن هم أعلم في هذا المجال، فالعلم بلا دين أعرج والدين بلا علم أعمى، فلنتبوأ الزعامة في العلم.

٣) تنظيم علمي الجديد للمسلمين مجال الفقه والدين، فنحن نحتاج لإعادة التنظيم وتجديد الفقه والعلم الشرعي ليناسب القرن الواحد والعشرين، دون هدم أساسياته بل التكملة على الأساس، فلا بد أن يكون هناك تقنين للفقه ما دمنا نريد الحكم بما أنزل الله كما فعل العثمانيون في أواخر عهدهم ولكن بالاقتصار على المذهب الحنفي، فنقنن الفقه بكل مذاهبه ليكون هناك دستور ديني كل بلد على حسب بيئتها وأعرافها، نحن أمة أعزنا الإسلام ولاعزة لنا إلا بالإسلام.

الفصل الثاني - زعامة العالم العربي

فقال إن الإسلام نبع من العرب إلى العالم بأسره، وعلى مر التاريخ الإسلامي كانت القيادة للعرب، فوضع أهم خطوات القيادة الإسلامية للعرب علم ديني مجدد، وثروة علمية معاصرة، واهتمام تكنلوجي عسكري، وينصح بإعادة نشأة الشباب على الحياة الفروسية والعسكرية من عيشهم عيش الترف والغفلة، وإلى حياة الرجولة المفقودة لأن القليل هم الرجال، فالعبرة ليست بخيل ركب أو رمح يرمى لكن تذوق التعب وصعوبات الحياة حتى يكون جيل فاتح مجاهد.

والاستقلال الاقتصادي للعرب بتجارتهم ومواردهم عن العالم، حيث تجمعت جميع موارد الحياة بها من نفط وزراعة وحديد وقمح، مع جمع الطبيعة والتكنلوجيا، ومع وجود وعي عربي للعالم المعاصر، وعندما يشاهد الشاب فيلما عن الحضارة الغربية فلا بد أن يحيط شموليا بماهية هذه الحضارة ما لها وما عليها، وعندما تتدافع الأحداث حوله إلى الكلام عن السلام من قتلى فلسطين لأحداث ٢٠٠١ لغزو العراق وأفغانستان فلا بد أن يواجه إلى استفزاز المسلمين إعلاميا وسياسيا ولا بد أن يربط الأحداث ما حوله، ويعلم ما الذي يحدث من المحرك؟ ما السبب؟ وكيف؟ وهل المسلمون حقا سينهضون؟ أم أنهم مصد تخلف للعالم؟ هذا المسلم العربي لا بد أن يمتلك حصانة فكرية وأصولية في الهوية ومعاصرة لما يناب البشرية، ويختم مترجيا باسم الدول الإسلامية العربية لإعادة الحياة الإسلامية من جديد لتكون لها الزعامة في العالم الجديد.

المصادر والمراجع

١) ماذا خسر العالم بإنحطاط المسلمين - تأليف: الشيخ أبو الحسن الندوي
٢) المسلمون في الهند - تأليف:الشيخ أبو الحسن الندوي
٣) قضية التخلف العلمي والتقني في العالم الإسلامي المعاصر- تأليف: د. زغلول النجار
٤) مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي- تأليف: مالك بن نبي
٥) مساهمات الهند في النثر العربي خلال القرن العشرين - تأليف: د.أشفاق أحمد
٦) أعلام الأدب العربي في الهند - تأليف:د. جمال الدين الفاروقي وغيره